

عمليات على بك الكبير الحربية فى الصعيد

الأستاذ الدكتور/ رأفت عنيى الشيوخ
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
عميد معهد البحوث والدراسات الآسيوية
جامعة الزقازيق

انطلاقاً من نظام الحكم العثمانى فى مصر استمرت الخلافات بين هيئات الحكم الثلاث فرأينا فى أوائل القرن الثامن عشر انهيار سلطة الباشا أمام سيطرة وقوة الأوجاقات العثمانية بينما عاشت مصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر عهداً من سيطرة البكوات المماليك على مقدرات الأمور فى الوقت الذى ضعفت فيه سلطة الباشا والأوجاقات العثمانية .

ومما زاد من قوة البكوات المماليك أنهم كانوا يشترون صغاراً ويعتقون الدين الاسلامى ويخضعون لتربية عسكرية قاسية ، بالإضافة إلى استمرار تدفقهم من خارج مصر وعدم انصهارهم فى المجتمع المصرى ، وكل ذلك أدى إلى أن طوائف المماليك ظلت محتفظة بنقائها وذاتيتها الخاصة .

وكان منصب شيخ البلد وهو حاكم القاهرة أعلى المناصب التى يتقلدها البكوات المماليك حيث كان يتولاه زعيمهم وأكثرهم عصبية وأكبرهم قوة عسكرية ، يليه منصب أمير الحج ، وكثيراً ما كان الخلاف يقع بين البكوات المماليك حول هذين المنصبين ، فإذا تولاه أحدهم أخذ فى التنكيل بمنافسيه وخصومه من البكوات والمماليك ، وأغدق الهبات والوظائف على أنصاره ومؤيديه فعندما " قتل حسين بك القازدغلى " المعروف بالصابونجى ، وتعين فى الرئاسة بعده على بك الكبير (عام ١١٧٢ هـ الموافق ٤ سبتمبر ١٧٥٨ - ٢٤ أغسطس ١٧٥٩ م) أحضر خشداشيته (١) المنفيين واستقر أمرهم (٢) .

(١) خشداشيته جمع خشداش أى زميل فى الرق .

(٢) عبدالرحمن الجبرتى : عجائب الآثار، ج ١ ، ص ٧١ .

ولقد وصف الرحالة والكتاب الأجانب الذين زاروا مصر فى القرن الثامن عشر أحوال مصر وما أصابها من اضطراب نتيجة الخلافات المملوكية فى غيبة الباشوات الأقوياء ، وفى حال انحلال الأوجقات العثمانية ، ورغم الخلافات بين البكوات المماليك إلا أنهم كانوا يتحدثون ضد باشا لا يرغبون فى وجوده فى القاهرة ، فيروى الجبرتى فى عام ١١٧٤ هـ الموافق ١٣ أغسطس ١٧٦٠ إلى ١ أغسطس ١٧٦١ م ، أن الباشا كان يدعى مصطفى باشا ، ويبدو أن البكوات المماليك كانوا عنه راضين ، حتى إذا عينت الدولة آخر العام واليا آخر يدعى أحمد باشا كامل المعروف بصيطلان ، وكان ذا شهامة وقوة مراس فقق فى الأحكام ، وصار يركب وينزل ويكشف عن الأنبار والغلال ، فتعصب عليه الأمراء ، وأصعدوا مصطفى باشا المعزول ، وعرضوا فى شأنه إلى الدولة .. (١)

وإذا كان الشعب المصرى الذى يقع عليه عبء هذه الخلافات يثور هنا وهناك فى أنحاء مصر فقط عندما تمس حياته بصورة يهتز لها مفهوم العدل والحكم العادل عند المصريين فإن الحكومة العثمانية كانت تلجأ إلى عدة إجراءات عقابا للبكوات المماليك ، من أمثلتها إغلاق أسواق الرقيق فى المناطق المحيطة بالبحر الأسود وبصفة خاصة فى البلقان حتى تحرم البكوات المماليك من مصادر قوتهم العديدة ، كما كانت الحكومة العثمانية تلجأ - وخاصة فى الأوقات التى لا تكون فيها مشغولة بحروب خارجية - إلى إرسال حملات تأديب إلى مصر يقابلها البكوات المماليك بالفرار إلى الصعيد ، ثم يعودون إلى القاهرة متى سحبت الحكومة العثمانية هذه الحملات .

ومن الطبيعى أن تتأثر أحوال المصريين بهذه الظروف ، فالزراعة مضطربة والتجارة كسدت ، والنواحي الثقافية تجمدت ، فى الوقت الذى زادت فيه سلطة شيخ البلد إلى حد الطغيان ، وفى الوقت الذى زادت فيه الضرائب على المصريين لمواجهة المشروعات الكبيرة التى يعمل شيخ البلد على تنفيذها ، ولمواجهة إغلاق أسواق الرقيق أمام البكوات المماليك باستخدام جنود مرتزقة من البدو واليونانيين الذين استخدموا فى الحرب بالمدافع التى اشتراها شيخ البلد .

(١) عبدالرحمن الجبرتى : نفس المرجع ، ص ٧٢ .

وكان الصعيد فى القرن الثامن عشر يعيش فى ظل سيطرة كبار الإقطاعيين والملتزمين ذوى العصبية التى يستندون إليها فى التمتع بحكم وتحكم بقل من سيطرة حكومة الباشا فى القاهرة ، وكان الصعيد فى ظل هؤلاء الإقطاعيين والملتزمين ملجأ الممالك الفارين من القاهرة ، ملجأ لأعداء الباشا أو أعداء شيخ البلد ، حيث يجيرون من استجار بهم دون أن يراعوا غضب الباشا أو شيخ البلد . وكان على رأس هؤلاء الإقطاعيين شيخ العرب همام بن يوسف الهوارى .

على بك

ذكر المؤرخ الأوروبى ستافرو لانسبان Stafro Lanspan وكان معاصرا لعلى بك وعاشره وعمل له . أن على بك ابن قسيس رومى أرثوذكسى من قرية أماسيا فى الأناضول واسمه القسيس داود ، وأنه - أى على بك - ولد فى سنة ١٧٢٨ م ثم خطف فى الثالثة عشرة من عمره وبيع فى القاهرة ، وكان اسمه يوسف ، وأنه تزوج يونانية مسيحية أظهرت الإسلام وبقيت على دينها اسمها مريم (١) .

وكان على بك مملوكا لإبراهيم كتخدا ، والاثنان من ممالك مصطفى كتخدا القازدغلى ولما بلغ على طور الشباب ظهرت شخصيته بكل مكوناتها من شجاعة وقوة وطموح وقسوة ، ثم تقلد الامارة والصنحية بعد موت إسناده ومسيده إبراهيم كتخدا عام ١١٦٨ هـ (١٧٥٤ - ١٧٥٥ م) ثم كان أميرا للحج وكبيراً للمالك وشيخا للبلد فى عام ١١٧٧ هـ (١٧٦٣ م) .

وعرف على بك بأكثر من اسم ، فقد عرف بعلى بك القازدغلى ، و " جن على " و " بلوط قبن " أو " بلوقيطان " ، ثم عرف باسم على بك الكبير بعد أن اتسعت فتوحاته خارج مصر وذاع صيته ، وقد مارس منازعات وحروب قاسية بينه وبين خصومه ومنافسيه من البكوات الممالك ، وكان قوى المراس ، شديد الشكيمة ، لا يرضى لنفسه بدون السلطنة العظمى بديلا ، فمما قال : أنا لا أتقلد الإمارة إلا بسيفى لا بمعونة أحد " (٢) .

أراد على بك أن يستخلص مصر لنفسه فقتل منافسيه من " الرؤساء والأقران ، وباقى الأعيان ، وفرق جمعهم فى القرى والبلدان ، وتبعهم خفقا وقتلا ، وأبادهم فرعا وأصلا

(١) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ج ٢ ص ٧٣ .

(٢) عبدالرحمن الجبرتى : نفس المرجع ص ٩٧ .

واستأصل كبار خشداشيته وقبيلته ، وأخرم القوانين الجسيمة ، والعوائد المرتبة ، وحارب كبار العربان " (١)

وقد استخدم في ذلك الأعداد الكبيرة من الممالك الذين اشترام والجند الذين استخدمهم من جميع الأجناس ، وكان يطالع الكتب التي تحوى التاريخ والسير ويشيد بدولة الممالك في مصر ويزعمائها مثل الظاهر بيبرس وقلالون وغيرهم ويفخر بانتسابه لهم وكان عظيم الهيبة ، فقد اتفق لأناس أن ماتوا فرقا من هيبتة ، وكان صحيح الفراسة شديد الحق ، ولا يحتاج في التهميم إلى ترجمان أو من يقرأ له الصكوك والوثائق بل يقرأها بنفسه (٢) .

وأن تعدد ألقاب على التي اشتملت إلى جانب ما ذكرنا الاسم الرسمى " ميرا للواء على بك" وتسمية العثمانيين له على بك بلوت قبلان " ليس سوى مظهر من مظاهر نشاطه الجم وكفاياته المتعددة ، فقد كان على بك كبير النفس كبير القلب كبير المطمع ، ظهر في عصر اضطراب وفوضى ، وفي وقت كانت مصر في أمس الحاجة إلى رجل مثله ، وقد أتيقن على بك دوره وأخذ في تنفيذه مضحيا بكل ما يملك من صحة ومال .. ما دام يجد منفذا إلى غرضه المزدوج : أن يجمع في يده بصفته قائمقام ما تشنت من سلطة الباشا العثماني ، وأن يخلق من الفوضى نظاما ما يمكنه من استغلال تلك السلطة لمصلحته ومصلحة ممالكه " (٣) .

وكان على بك لا يميل إلى الهزل والمزاح ، ويجالس العلماء أهل الاحترام مثل الشيخ حسن الجبرتي والشيخ أحمد الدمنهورى وغيرهم ، وكان يطالع كتب التاريخ والأخبار وسير ملوك مصر من الممالك ، ويقول لخاصته : إن هؤلاء الملوك كانوا من جنسنا مثل السلطان بيبرس ، والسلطان قلالون وأولادهم ، وكذلك ملوك الجراكسة ، ولم يستول العثمانيون على مصر ويقهروا هؤلاء الممالك إلا بالقوة ونفاق أهل البلد " (٤)

ومع صفات على بك الطيبة وتحريه العدل فقد اشتهر بالقسوة التي لا تعرف الرحمة مع خصومه ومعارضيه ، فلا زالت عشرات الأرواح التي أمر بإزهاقها ليعيد بها سبيل مجده

(١) نفس المرجع والصفحة .

(٢) الجبرتي : المرجع السابق ص ٩٨ .

(٣) رفعت رمضان : على بك الكبير ص ٢٠٤ .

(٤) محمود الشراوى : المرجع السابق ج ٢ ص ٧٤ .

تتعى وسائله التى تقوم على القسوة والغدر ، وهذه بلا شك نقطة سوداء تشوب نقاء صحيفته البيضاء " (١) .

وإذا كان الجبرتى رغم ما أورده من شواهد على قسوة على بك الكبير قد إشاد فى أكثر من موضع . بأمراء المماليك وسامهم " الأمراء المصرية " إشادة عامة " إلا أنه أثنى كثيرا على حكومة على بك الكبير الذى جعل من مصر مدنها وريفها بلدا آمنا رضى العيش حتى كان المسافر يسير بمفرده ليلا راكبا أو ماشيا ومعه حمل الدراهم والدنانير إلى أى جهة ويبيت فى الغيط أو البرية " (٢) .

وقد أشاد الجبرتى بإصلاحات على بك وإنشاءاته سواء بالنسبة لدواوين الحكومة ليضمن انتظام الأمور وتحقيق العدالة ، أو إنشاء المساجد والأسبلة والعمائر ، وقلاع الإسكندرية ودمياط ، وتجديد مساجد الإمام الشافعى والسيد البدوى بطنطا ، وغير ذلك من شئون التعمير التى ما زالت شاهدا على اتجاهات على بك للبناء .

وقد شارك بعض الرحالة الأوربيين الجبرتى فى الإشادة بحكومة على بك ، فالمؤرخ "سافارى" Savary أشاد بعدل على بك وكرمه ، واعترف كل من فولنى Volney ، وأولفيه Olivier أنه سمع ثناء مستطابا عليه من التجار الفرنسيين الذين تقينوا ظلال عدله وحكمه الرشيد " (٣) .

ورغم أن الرحالة الانجليزى جيمس بروس James Bruce قد حمل بشدة على البكوات المماليك واتهمهم بأنه " ربما لا يوجد فى العالم رجال أجلاف جائرون طغاة ظالمون جشعون يمثل الدرجة التى عليها أولئك الأشرار الذين يقبضون على حكومة القاهرة فإنه أنصف حكم على بك بقوله : " لحسن الحظ عندما كنت بالقاهرة لم أصادف ذلك النوع المشوش من الحكومات ، بل على بك الشهير بحكم بنفسه أو بواسطة عماله " (٤) .

(١) رفعت رمضان : نفس المرجع السابق ص ٢٠٥ .

(٢) الجبرتى : نفس المرجع والصفحة .

(٣) رفعت رمضان : نفس المرجع ص ٢٠٨ .

(٤) نفس المرجع ونفس الصفحة .

ورغم ذلك فقد كان لعلى بك سلبيات أفضت فى النهاية إلى فشله فى تحقيق مشروعاته من بينها قلة حظه من الثقافة واعتماده على التنجيم والفلك حتى صار أسير ما تشير إليه النجوم وحتى خضع للمنجمين وقربهم منه ، ومنها أن حاشيته لم يكن فيها الناصح الأمين الذى يستند إلى خبرة سياسية وعلمية .

العمليات الحربية

أولا : فى القاهرة :

واجه على بك مصاعب كثيرة من قوى متعددة فى مصر تعوقه عن تحقيق مشروعاته وعن التمتع بمصر دون منافس ، فلم يكد على بك يعتلى كرسي مشيخة البلد بالقاهرة عام ١٧٦٣م حتى اضطره أعداؤه ومنافسوه إلى الفرار من القاهرة إلى الصعيد تارة وإلى الحجاز تارة أخرى وإلى الشام طورا ثالثا ، وحتى اذا عاد الى منصبه عام ١٧٦٧م انتقم من أعدائه وأنزل العقاب بمثيرى الفتن والاضطراب .

فى الثانى من شهر جمادى الآخرة (٢٦ أكتوبر ١٧٦٧ م) كان على بك قد استطاع بحد السيف العودة إلى القاهرة من الصعيد الذى كان به مقيما هربا من خصمه الأقوى بالقاهرة ، ثم طلع ومعه أتباعه إلى الديوان بالقلعة ، " فخلع الباشا على على بك واستقر فى مشيخة البلد كما كان ، وخلع على صناعته خلع الاستمرار أيضا فى إمارتهم ، كما كانوا ونزلوا الى بيوتهم . وثبت قدم على بك فى إمارة مصر ورئاستها فى هذه المرة ، وظهر بعد ذلك الظهور التام ، وملك الديار المصرية والأقطار الحجازية ، والبلاد الشامية ، وقتل المتمردين وقطع المعاندين ، وشنت شمل المنافقين ، وخرق القواعد ، وخرم العوائد وأخرب البيوت القديمة ، وأبطل الطرائق التى كانت مستقيمة (١) .

وكان على بك قد تخلص من عبدالرحمن كتحذا الذى كان أكبر منافس له بنفيه إلى الحجاز ، وقد اشتد ساعد على بك بعد استبعاد عبدالرحمن كتحذا وأنصاره من القاهرة فأخذ يؤلب بعض البكوات على بعض حتى أضعف شوكة الأقوياء منهم ، وقد ارتجت مصر (القاهرة) فى ذلك اليوم " وخصوصا لخروج عبدالرحمن كتحدا ، فإنه كان أعظم الجميع وكبيرهم وابن سيدهم ، وله الصولة والكلمة والشهرة ، وكان له عزوة كبيرة ومماليك وأتباع

(١) الجبرتي : نفس المرجع ص ٨٠ .

وعساكر مغاربة وغيرهم ، حتى ظن الناس وقوع فتنة عظيمة فى ذلك اليوم . فلم يحصل شيء من ذلك سوى ما نزل بالناس من البهتة والتعجب (١) . وكان ذلك عام ١١٧٨ هـ (١ يوليو ١٧٦٤ الى ١٩ يونيو ١٧٦٥ م) .

كما تخلص على بك فى ١٨ ربيع الآخر ١١٨٢ هـ الموافق أول سبتمبر ١٧٦٨ م من صالح بيك بقتله ، وبذلك تخلص على بك من آخر صنjq كان منافسا له فى مشيخة البلد وقبل ذلك بشهرين كان على بك قد نفى عددا من البكوات المماليك إلى الصعيد ، وإلى الحجاز وإلى الفيوم .

ثانيا : فى الدلتا :

وقد تابع على بك سياسته هذه بالقتل والنفى والمصادرة حتى وصفه الجبرتى بأنه هو الذى ابتدع المصادرات وسلب الأموال من مبادئ ظهوره واقتدى به من بعده (٢) . وقد استخدم على بك فى تنفيذ سياسته هذه عددا من أتباعه أشهرهم محمد بك أبو الذهب ، وأحمد الجزار الذى عرف بذلك بسبب ما أظهره من بطش وقسوة ضد بدو الدلتا الثائرين وهم الحبابية بشرق ووسط الدلتا ، والهنادى بإقليم البحيرة .

وكان سويلم بن حبيب زعيم الحبابية بالشرقية والقليوبية قد نشر نفوذه وسيطرته على بلاد إقليمى الشرقية والقليوبية ، وقطع الطريق بين القاهرة والوجه البحرى ، فلما أرسل إليه على بك التجريدات انضم إلى عرب الهنادى بالبحيرة ، وانضم إليهم كذلك بعض أعداء على بك من البكوات المماليك واستولوا على الإقليم وقتلوا السنjq الموالى لعلى بك .

وقد أرسل على بك إلى إقليم البحيرة حملتين للقضاء على هذه الفتنة المضادة له ونجحت حملات على بك فى القضاء على هؤلاء المناوئين ، وحتى سويلم بن حبيب " قتلوه - وقطعوا رأسه ورفعوها على رمح .. واشتهر ذلك فارقت الحرب بين الفريقين ، وتقوى الهنادى ، وعرب الجزيرة والصوالة وغيرهم ، وراحت كسرة على الجميع ، ولم يبق لهم قائم من ذلك اليوم " (٣) .

(١) نفس المرجع ص ٧٥ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٨٦ .

(٣) نفس المرجع ص ٨٧ .

ثالثا : فى الصعيد :

أ- أعداء على بك :

وبعد أن دانت بلاد الوجه البحرى لعلى بك تطلع إلى الوجه القبلى الذى كان سيده وزعيمه شيخ العرب همام بن يوسف الهوارى ، " وبقدر ما كانت هيبة سويلم بن حبيب فى الوجه البحرى تقوم على الرهبة من طغيانه وفجوره ، كانت هيبة همام بن يوسف فى الوجه القبلى تقوم على الإعجاب بشهامته وتقدير مجموعة الصفات النادرة التى كونت شخصيته الفذة " (١) ، فلم يكن همام قاطع طريق أو طاغية بل كان مجبر من يستجير به ويحمى من يطلب حماه ويمد بالمال والسلاح من يطلب منه المدد ، " ولم يكن على بك يخشى من ازدياد نفوذ همام واتساع أملاكه ، لأن همام لم يأت أمرا يخل بالأمن ، بل كان حريصا على إرسال الميرى بانتظام ، كما كان يرسل بين الحين والآخر الهدايا للباشا العثمانى وشيخ البلد بالقاهرة ، وكذلك لكشاف الأقاليم الخاضعة لسلطته ، ولكن الذى ضايق على بك هو تحول الصعيد إلى وكر تنبت فيه الفتن ومورد يمد منافسيه على مشيخة البلد بالمؤمن والعتاد والسلاح " (٢)

استقر رأى على بك على ضرورة التخلص من همام ، فأرسل جيشا بقيادة مملوكه محمد بك أبو الذهب ، ولكن همام صالح أبا الذهب على أن يكون له التزام البلاد جنوبى برديس ، ثم عاد محمد أبو الذهب إلى القاهرة فأرسل على بك إلى همام ينكره بأن الصلح يعتبر لاغيا إذا لم يطرد أعداء على بك من البلاد التى فى حوزته ، فطلب منهم همام الخروج إلى أسىوط وتملكها ، وبالفعل ملكوا أسىوط بالقوة وتحصنوا بها وهرب من كان بها من أتباع على بك ، وكان ذلك فى صفر ١١٨٣ هـ الموافق يونيو ١٧٦٩م ، فخرجت حملة أخرى بقيادة أبو الذهب وصلت إلى أسىوط والتحمت مع الممتلكين أسىوط فى معركة ضارية انتهت بانتصار أبو الذهب وجيشه وتشتت أعدائه وانضمامهم إلى عرب الهوارة فى الجنوب ، وفى الواقع ، كانت معركة أسىوط من أحسم المواقع فى تاريخ على بك ، وهى التى أكدت له النصر فأصبح سيد الوجهين وصاحب النفوذ المطلق فى جميع أنحاء مصر " (٣) .

لم يتوقف محمد بك أبو الذهب فى أسىوط ولكنه زحف جنوبا لملاقاة همام وعرب الهوارة واستطاع استمالة ابن عم همام ويدعى أبو عبدالله ، ومن ثم سار زحف الجيش إلى فرشوط دون مقاومة عنيدة ، حتى دخلها ليجد همام قد تركها ومات كمدا قرب إسنا ، ومن ثم تمك

(١) رفعت رمضان : على بك الكبير ص ٤٨ .

(٢) د. السيد رجب حرز : المنخل إلى تاريخ مصر الحديث ص ٢٥ .

(٣) رفعت رمضان : نفس للمرجع ص ٥٢ .

الجيش فرشوط ونهبوا وأخذوا جميع ما كان بدوائر همام وأقاربه وأتباعه من ذخائر وأموال وغلال وزالت دولة شيخ العرب همام من بلاد الصعيد من ذلك التاريخ كأن لم تكن (١) . وخلصت مصر بوجهيها البحرى والقبلى لعلى بك وأتباعه .

ب- معركة أسيوط :

ويصف الجبرتي وقائع على بك الحربية فى أسيوط وما يليها جنوبا فى أحداث شهر صفر عام ١١٨٣ هـ الموافق لشهر يونيو عام ١٧٦٩م ، فيقول : وفيه أى فى هذا التاريخ تقلد أيوب بك على منصب جرجا وخرج مسافرا ومعه عدة كبيرة من العساكر والأجناد فوصلوا إلى قرب أسيوط ، فوردت الأخبار باجتماع الأمراء المنافى (٢) . وتملكهم أسيوط وتحصنهم بها .

ويضيف الجبرتي قائلا ، وكان من أمرهم أنه لما ذهب محمد بك أبو الذهب إلى جهة قبلى لمنابذة شيخ العرب همام - كما ذكرنا - وجرى بينهما الصلح على أن يكون لهمام من حدود برديس ، وتم الأمر على ذلك ، ورجع محمد بك إلى مصر - القاهرة وأرسل على بك يقول له : إنى أمضيت ذلك بشرط أن تطردوا المصريين (٣) الذين عندك ، ولا تبق منهم أحدا بدائرتك فجمعهم وأخبرهم بذلك ، وقال لهم : اذهبوا إلى أسيوط واملكوها قبل كل شىء فان فعلتم ذلك كان لكم بها قوة ومنعة ، وأنا أمدكم بعد ذلك بالمال والرجال ، فاستصوبوا رأيه وبادروا وذهبوا إلى أسيوط .

ويصف الجبرتي الأحوال فى أسيوط بعد اتفاق محمد أبو الذهب رجل على بك الكبير وشيخ العرب همام بن يوسف الهوارى الذى طلب من أعداء على بك امتلاك أسيوط ، فيقول الجبرتي كان بأسيوط آنذاك عبدالرحمن كاشف من طرف على بك ، وذى الفقار كاشف ، وقد كانوا حصنوا البلدة وجهاتها ، وبنوا كرانك (٤) والبوابة ، وركب عليها المدافع ، فتحيل القوم ليلا وزحفوا إلى البوابة ومعهم أنخاخ وأحطاب ، جعلوا فيها الكبريت والزيت ، وأشعلوا وأحرقوا الباب ، وهجموا على البلدة ، فلم يكن له بهم طاقة لكثرتهم وهم جماعة صالح بك وباقي القاسمية ، وجماعة الخشاب ، وجماعة الفلاح ، وجماعة مناو ، ويحيى السكرى ،

(١) الجبرتي : نفس المرجع ص ٨٩ .

(٢) الأمراء المنافى أى البكوات المماليك الهاربين والمنفيين إلى الصعيد .

(٣) يقصد أمراء المماليك أعداء على بك ، الذين يجب على همام طردهم من منطقة لتزلمه فى فرشوط ، ولكن همام طلب منهم التوجه وامتلاك أسيوط .

(٤) الكرانك تعنى التحصينات العسكرية .

وسليمان الجلفى ، وحسن كاشف ترك ، وحسن بك أبو كرشى ، ومحمد بيك الماوردى ،
وعبدالرحمن كاشف من خشدانشين صالح بك - وكان من الشجعان ومحمد كتخدا الجلفى ،
وعلى بك الملط - تابع خليل بك - وجماعة كشكش وغيرهم ومعهم كبار الهوارة وأهالى
الصعيد (١) ، فملكوا أسبوط وتحصنوا بها ، وهرب من كان فيها .

ويكمل الجبرتي روايته عن معركة أسبوط فيقول : وردت الأخبار بذلك إلى على بك فعين
للسفر إبراهيم بك بلفيا ، ومحمد بك أبو شنب ، وعلى بك الطنطاوى ، ومن كل وفاق جماعة
وعساكر ومقاربة ، وأرسل إلى خليل بك القاسمى المعروف بالأسبوطى فأحضره من غزة ،
وطلع هو وإبراهيم بك - تابع محمد بك - بعساكر أيضا ، وعزل الباشا وأنزله وحبسه ببيت
إيواظ بك عند الزير المعلق ، ثم سافر محمد بك أبو الذهب ، ورضوان بك وعدة من الأمراء
والصناجق ، وضم إليهم ما جمعه وجلبه من العساكر المختلفة الأجناس من دلاة ودروزه
ومتأولة وشوام ، وسافر الجميع برا وبحرا حتى وصلوا إلى أيوب بك ، وهو يرسل خلفهم فى
كل يوم بالإمدادات والجحانات والذخيرة والبقسمات ، وذهب الجميع إلى أن وصلوا قرب
أسبوط ، ونصبوا عرضيهم عند جزيرة منقباط (٢) ، وتحققوا وصول محمد بك ومن معه
وفرحوا بذلك لأنهم كانوا رأوا فى زابرجات الرمل (٣) سقوطه فى المعركة ثم أجمعوا أمرهم
على أن يدهمهم آخر الليل ، فركبوا فى ساعة معلومة ، وسار بهم الدليل فى طوق الجبل ،
وقصدوا النزول من محل كذا على ناحية كذا من العرضى ، فتاه وضل بهم الدليل حتى
تجاوزوا المكان المقصود بنحو ساعتين ، وأخذوا جهة العرضى فوجدوه قبليهم حتى تجاوزوا
المكان المقصود بنحو ساعتين ، وأخذوا جهة العرضى فوجدوه قبليهم بذلك المقدار ، وعلموا
فوات القصد ، وأن القوم متى علموا حصولهم خلفهم ملكوا البلدة من غير مانع قبل رجوعهم
من المكان الذى أتوا منه ، فما وسعهم إلا الذهاب إليهم ومصادمتهم على أى وجه كان ، فلم
يصلوهم إلا بعد طلوع النهار .

ويستطرد الجبرتي فى وصف معركة أسبوط فيقول : وتيقظ القوم واستعدوا لهم فالتظموا
معهم - وهم قليلون بالنسبة إليهم - ووقع الحرب ، واشتد الجلاذ . وبذلوا جهودهم فى الحرب
ويصرخ الكثير منهم بقله ، أين محمد بك ، فبرز إليهم محمد بك أبو شنب وهو يقول أنا
محمد بك ، فقصده وقاتلوه وقاتلهم حتى قتل ، وسقط جواد يحيى السكرى ، فلم يزل يقاتل

(١) يعنى بهم أهالى الصعيد غير عرب الهوارة .

(٢) منقباط هى المعروفة الآن باسم منقباد .

(٣) أى ضاربات الرمل أو قارئات الودع .

ويدافع حصّة طويلة حتى تكاثروا عليه وقتلوه ، وعبدالرحمن كاشف القاسمى يحارب بمدفع يضربه وهو على كتفه .

وقد انجلت الحرب عن هزيمتهم ونصرة المصريين (١) عليهم ، وذلك عند جبانة أسيوط فتشتتوا فى الجهات وانضموا إلى كبار الهوارة ، وملك المصريون أسيوط ، ودفنوا القتلى ومحمد بك أبو شنب واغتم محمد بك أبو الذهب لموته . وفرح لوقوع الزايرجة (٢) عليه ومعاداته له لأنه كان يعلم ذلك أيضا ، وأقاموا بأسيوط أياما ، ثم ارتحلوا إلى قبلى بقصد محاربة همام والهوارة .

وقد قصدت من ذكر تفاصيل معركة أسيوط أن أوضح أنها كانت المعركة الشديدة والحامسة فى معارك على بك ، فإذا كانت معاركه فى شرق الدلتا وغرب الدلتا وأقصد ضد الحبابية والهنادى قد جعلت الدلتا تدين لعلى بك وإن كانت العداوة فى الدلتا كانت محصورة فقط فى زعامات قبائل العربان ، فإن معركة أسيوط قد حققت لعلى بك هدفين هما التخلص من المماليك أعداءه الذين يتخونون من الصعيد وكرا لمؤامراتهم ضده يتحينون الفرص لينقضوا عليه فى القاهرة ، والهدف الثانى التخلص من سيطرة همام بن يوسف وقوة قبائل عرب الهوارة فى الصعيد .

ج - التخلص من همام وزوال دولته :

يصف الجبرتى فى أحداث شهر صفر ١١٨٣ هـ (٣) أيضا عن زوال دولة همام وموته أنه بعد معركة أسيوط ، صدر أمر على بك لمملوكه محمد بك أبو الذهب للتقدم من أسيوط نحو معقل همام الهوارى ، وبالفعل عندما اتجه محمد بك جنوبا وجد تجمع كبار الهوارة مع من انضم إليهم من الأمراء المهزومين ، فراسل محمد بك اسماعيل أبو عبدالله - وهو ابن عم همام - واستماله ومناه ووعده برئاسة بلاد الصعيد عوضا عن شيخ العرب همام ، حتى ركن إلى قوله ، وصدق تمويهااته وتقاعس ، وتثبط عن القتال وخذل طوائفه .

ويكمل الجبرتى قصة نهاية شيخ العرب همام بن يوسف الهوارى فيقول : ولما بلغ شيخ العرب همام ما حصل ورأى فشل القوم ، خرج من فرشوط وبعد عنها مسافة ثلاثة أيام ومات

(١) أى جند على بك الزاخرين من (مصر) للقاهرة .

(٢) أى قراءة للرمل أو ضرب الودع .

(٣) الموافق لشهر يونيو عام ١٧٦٩م .

مكمودا مقهورا ، ووصل محمد بك ومن معه إلى فرشوط فلم يجدوا مانعا فملكوها ونهبوها وأخذوا جميع ما كان بدوائر همام وأقاربه وأتباعه من ذخائر وأموال وغلال ، وزالت دولة شيخ العرب همام من بلاد الصعيد من ذلك التاريخ كأنها لم تكن .

ورجع الأمراء إلى مصر ومحمد بك أبو الذهب وصحبه درويش بن شيخ العرب همام ، ولما مات أبوه ، وانكسر ظهر القوم بموته ، وعلموا أنهم لانجاح لهم بعده ، أشاروا على ابنه بمقابلة محمد بك وانفصلوا عنه وتفرقوا في الجهات ، فمنهم من ذهب إلى درنة - في ليبيا بمنطقة الجبل الأخضر بإقليم برقة - ومنهم من ذهب إلى الروم - يقصد الدولة العثمانية - ومنهم من ذهب إلى الشام ، وقابل درويش بن همام محمد بك وحضر صحبته إلى مصر - يقصد القاهرة - وأسكنه في مكان بالرحبة المقابلة لبيته ، وصار يركب ويذهب لزيارة المشاهد ويتفرج على مصر ويتفرج عليه الناس ويمسرون خلفه وأمامه لينظروا ذاته ، وكان وجيها طويلا أبيض اللون أسود اللحية جميل الصورة ..

وينهى الجبرتي قصة همام بأن على بك أعطى درويش بن همام بلاد فرشوط والوقف بشقاعة محمد بك ، فذهب إلى وطنه فلم يحسن السير والتدبير ، وأخذ أمره في الانحلال ، وحاله في الاضمحلال ، وأرسل من طالبه بالأموال والذخائر فأخذوا ما وجدوه وحضر إلى مصر والتجأ إلى محمد بك فأكرمه وأنزله بمنزل بجواره ، فلم يزل مقيما به حتى خرج محمد بك من مصر مغاضبا لأستاذه - على بك الكبير - فلحق به وسافر إلى الصعيد .

خاتمة :

كانت لمعارك على بك الكبير الحربية عدة نتائج ذات أهمية بالنسبة لعلى بك نفسه ولمصر في فترة حكمه شيخا للبلد أو قائم مقام مصر المحروسة نحدد ما فيما يلي :-
أولا : تخلص على بك وحتى وفاته من مضايقات ومؤامرات الزعماء المماليك الذين كانوا يتخذون من بلاد الصعيد وكرا لتدبير المؤامرات ضد على بك إلى جانب حرمان القاهرة من إيرادات أراضي الصعيد .

فيذكر الجبرتي أنه بعد معركة أسبوط وزوال دولة همام الهواري أخذ على بك في قتل المنافى الذين أخرجهم إلى البنادر مثل دمياط ورشيد والإسكندرية والمنصورة فكان يرسل إليهم ويخونهم واحدا بعد واحد . فخلق على كتحدا الخربوطلى برشيد وحمزة بك - تابع

خليل بك - بزفتى ، وقتلوا معه سليمان أغا الوالى وإسماعيل بك - أبا منفع - بالمنصورة ،
وعثمان بك - تابع خليل بك - هرب الى مركب البيليك (١) فحماء وذهب إلى إسلامبول ،
ومات هناك ، ونفى أيضا جماعة وأخرجهم من مصر ، وفيهم سليمان كتخدا المشهدى ،
وإبراهيم أفندى جمليان .

ثانيا : تخلص على بك من سطوة همام بن يوسف الهوارى وقبائل عرب الهوارة فخلصت بلاد
الصعيد كلها لعلى بك ، وأصبح بذلك سيد مصر الحقيقى وأخذت الأموال الأميرية
(المال الميرى) والعوايد تصل الى القاهرة دون نقصان ودون تأخير ، واستقر الأمن فى
بلاد - الصعيد كبقية البلاد المصرية وانتهت عمليات السلب والنهب وقطع الطريق التى
كانت سائدة فى بلاد الصعيد ، وكان القائمون بهذه العمليات يحتمون بهمام
الهوارى ورجاله .

ثالثا : أن على بك قبل إرسال حملته الحربية إلى أسبوط وبلاد الصعيد أنزل الباشا العثمانى
المعين بفرمان من سلطان الدولة العثمانية أنزله من القلعة وحبس - كما ذكرت - فى
بيت أيواظ بك عند الوزير المعلق . وهذا يعنى أنه لم يعد فى حاجة إلى أن يستمد
الشرعية لحملاته الحربية فى الصعيد من صاحب السطة الشرعية وهو الباشا كما كان
على بك يفعل فى العمليات الحربية فى الدلتا ، حيث كان يعلن أنه يحصل على موافقة
الباشا على القيام بهذه العمليات الحربية .

المصادر

- ١- عبدالرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار .
- ٢- د. السيد رجب حراز : المدخل الى تاريخ مصر الحديث .
- ٣- د. محمد رفعت رمضان : على بك الكبير .
- ٤- د. رأفت غنيمى الشيخ ك تاريخ العرب الحديث .
- ٥- محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ٣ أجزاء .

(١) مركب البيليك هو المركب الحكومى .